الدرس الثامن

تفسير سورة القلم [١٧ : ٣٤]

لما ذكر الله ﷻ هاتين الصورتين الخلقيتين المتقابلتين وذكر نعمته ﷻ على قريش وعلى مشركي العرب ببعثة محمد ﷺ وكيف قابلوا هذه النعمة بالنكران ضرب لهم مثلا واقعيا وقصة ذات عبرة، فقال ﷻ: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ} [القلم:١٧-٣٢].

هذه القصة تحكي حال نفر ورثوا بستانا عن أبيهم، ويقال أن أباهم كان ذا فضل وإحسان إلى الفقراء والمساكين، فإذا أثمرت حديقته رد جزءًا منها في إصلاحها وتعميرها وادخر منها وذووه ما يكفيه وتصدق بالثلث على الفقراء والمساكين، فبورك له فيها.

ثم إن بنيه من بعده رأوا في هذا التصرف إضاعةً لأموالهم، فنشأ عندهم بسبب الشح والبخل والإمساك ما حملهم على أن يخالفوا طريقة أبيهم وأن يتآمروا ويتواطؤوا على منع المساكين فقابلوا النعماء بالكفران.

{إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ}، أي بلونا مشركي العرب وكفار مكة كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ، والبلاء هو الاختبار، والله ﷻ يبتلي عباده بأنواع البلاء ليستنبط ما في قلوبهم من خير أو شر، وهذه سنته سبحانه في خلقه.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

{الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت:١-٣]، لا بد من ابتلاء، لا يدع الله الناس دون بلاء، كل أحد سيبتلى، وقد سئل النبي ﷺ: « أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: " الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ زِيدَ فِي بَلائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ»[1] فلا بد بد أن يبتلى الإنسان بالسراء والضراء، {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء:٣٥].

والواجب على من ابتلي أن يقابل السراء بالشكران، والضراء بالصبر والسلوان، قال نبينا ﷺ: « عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ »[2]، فهكذا قال الله تعالى: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ} فالابتلاء له حكمة وهو تميز المؤمنين من الكفار والأبرار من الفجار والصادق من الكاذب كما تلونا آنفا: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}، فالبلاء هو المحك، هو الذي يبين معدن الإنسان وحقيقته، فاستمسك واعتصم بالله ﷻ حتى تنجو من هذا الاختبار.

والجنة هي البستان، وإنما سميت بذلك؛ لأنها مجتنة تحيط بها الأشجار وتحجبها من كل جهة، ففيها من الحبوب والثمار ما تشتهيه الأنفس.

{إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ}، حلفوا أيمانا ليؤكدوا ما هم مقدمون عليه، {لَيَصْرِمُنَّهَا}: أي ليجُدنَّ ثمرة هذه الجنة في الصباح الباكر، وقال بعض المفسرين: أن

[1] أخرجه الترمذي- (٢٣٩٨)، وأحمد- (١٤٨١)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
[2] أخرجه مسلم- (٢٩٩٩).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

معنى مصبحين أي في الليل، كأن مراده أي مستقبلي الصباح حتى لا يفطن الفقراء والمساكين كعادتهم لينالوا ما ينالون.

لكن ظاهر الآيات أن ذلك وقع في الصباح الباكر، لقوله: {فَلَمَّا رَأَوْهَا}، وذلك لا يتأتى نصف الليل، بل يكون بعد انبلاج الفجر، ولقوله: {وَغَدَوْا}، والغدو: الذهاب أول النهار. وفي الصباح الباكر قد لا يتفطن الفقراء والمساكين لخروجهم حتى يرتفع النهار، والصرم معناه الجذاذ، وقطف الثمار وحصد الزروع.

{وَلَا يَسْتَثْنُونَ}، ومعنى وَلَا يَسْتَثْنُونَ: أي أنهم لم يقولوا: إن شاء الله، هذا هو الاستثناء، ومن المعلوم أن يجب على الإنسان إذا هم بأمر من الأمور وعزم عليه وقال إني فاعل ذلك غدا أن يستثني ويقول إن شاء الله، وكما قال ربنا ﷻ: {وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ} [الكهف:٢٣-٢٤].

فيجب على الإنسان إذا عبر بصيغة تدل على الجزم أنه يفعل الشيء أن يستثني ويعلق الأمر بمشيئت الله، إذ أن الله تعالى يقول: {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ رَبُّ الْعَالَمِين} [التكوير:٢٩]، فكل شيء مقرون بمشيئته، لا سيما إذا عبر بالجملة الاسمية، إني فاعل، الدالة على الاستقرار والثبوت.

فلما أقسموا قسمًا مؤكدًا بلام القسم ونون التأكيد الثقيلة {لَيَصْرِمُنَّهَا}، أنهم سيفعلون كان ذلك دليلا على تصميمهم وعزمهم، ولكنهم لم يستثنوا، ولم يقولوا إن شاء الله. لا بد من أن يتفطن الإنسان لمشيئة الله تعالى، فلا يطلق العبارات الجازمة بأنه فاعل كذا ويفعل كذا دون أن يقرنها بالمشيئة، إن قلت شيئا فقل إن شاء الله، ولا تتوهم أنك قادر على إنفاذ ما أردت، العبد يشاء ، والرب يشاء، لكن لا يكون إلا ما يشاء الله، {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ رَبُّ الْعَالَمِين}.

بعض الناس تجده يطلق القول على عواهنه بأنه سيفعل ويفعل ويقوم ويقعد ويقدم ويؤخر ثم يحال بينه وبين ما أراد، يأتي أحدنا في الليل قبل أن ينام يخطط لما سيعمل غدا وربما كتب قائمة بأعمال اليوم التالي ثم يصبح مريضا أو يجد سيارته متعطلة، فلا يصنع شيئا من ذلك البتة، فعلى الإنسان أن يعود نفسه على التعليق بالمشيئة لاسيما إذا خرج الكلام منه مخرج الجزم كالصيغة الاسمية، قال ربنا ﷻ: {وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ}.

وكذا لو اقترن بالقسم كما فعل هؤلاء، {إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ} بالقسم ونون التوكيد ولام القسم، فكان من شؤم تركهم للاستثناء ما سمعتم، أما إذا قال الإنسان إن شاء الله فإنه يحصل بها بركة، حتى أن الاستثناء يشرع في الأمور المحققة، قال الله ﷻ: {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ} [الفتح:٢٧] مع أن القائل هو الله، وجاء بالقسم ولام القسم ونون التوكيد الثقيلة ومع ذلك قال إن شاء الله.

{فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ}، الطائف لا يكون إلا ليلا، كالطارق، فإن الطارق لا يكون إلا بليل، {وَهُمْ نَائِمُونَ}، أي في وقت هجدتهم وهجوعهم سلط الله عليها آفةً من السماء فأهلكتها بعد أن زهت أشجارها وأينعت ثمارها وباتت في غاية الحسن والنضارة، {فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ}، أي فصارت تلك الجنة الغناء المليئة بالثمار والزروع كالصريم، قال ابن عباس ﷺ: كَالصَّرِيمِ أَيْ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ[1]. يعني أنها احترقت فصارت سوداء قاتمة، وقيل أن الصريم فعيل بمعنى مصروم، وكما يقول الله ﷻ: كعصف مأكول، فالشيء المصروم الذي وُطئ وديس يسمى صريما. يخيل للناس أحيانا أنهم قد تمكنوا وضبطوا أمورهم وأعدوا واستعدوا لكن يأتيهم الله من حيث لم يحتسبوا، {حَتَّىَ إِذَا

[1] تفسير الطبري- (٢٣/ ٥٤٤).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ} [يونس:٢٤].

ومن تأمل في مجريات الأمور الواقعية والتاريخية رأى أمثلة عجيبة من نفاذ مشيئة الله تعالى وقدرته.

هذا وهم في غرة وغفلة ، {فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ}، نادى بعضهم بعضا في الصباح الباكر كما {أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ}، هلموا إلى ما وعقدتم العزم عليه أن تصرموه، فقد كان زرعا وبعضه كان ثمارا ويقال إن بستانهم من العنب. بالإيمان بالقدر، فالعبد له مشيئة حقيقية، لكن مشيئته تلك تابعة لمشيئة الله تعالى، قال تعالى: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} [التكوير:٢٨] ؟،وقال تعالى: {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} [البقرة:٢٢٣]، وإنما أنكر مشيئة العبد الجبرية الذين يقولون العبد مجبور على فعله، العبد كالريشة في مهب الريح، العبد مسير، والشرع والواقع يدل على خلاف ذلك، لكن هذه المشيئة الحقيقية تابعة لمشيئة الله تعالى، الله هو الذي وهبك المشيئة ووهبك القدرة، لكن واهب ذلك قادر على منعه وقطعه. لهذا قال: {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير:٢٩]، فعليك يا عبد الله أن تضبط العلاقة بين مشيئتك ومشيئة الله، فلا تدع العمل وفعل الأسباب، اعمل وافعل الأسباب وسل الله ﷻ التمام والكمال، فإنه قد يحول بينك وبين ما عارضت.

{فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ}، يتصور القارئ هؤلاء الملأ الذين يسيرون بغلس متجهين إلى بستانهم يتساروُّن فيما بينهم ويتناجون خشية أن يسمعهم أحد فينقل كلامهم إلى الفقراء والمساكين؛ قائلين {أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ}، تواطؤوا وتآمروا أن يغلقوا بستانهم عليهم فلا يدخله عليهم مسكين خلافًا لما كان أبوهم يفعل من قبلهم.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

هؤلاء الذين أنعم الله عليهم من أهل الجنة، ، غلة بستانهم تكفيهم وزيادة، لكن كما قال ربنا: {وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ} [النساء:١٢٨]، فالشح جزء من تكوين ابن آدم، وعلى الإنسان أن يستعيذ بالله تعالى من الشح؛ لأنه يحمله على المنع وإيصال الحقوق لمستحقيها،.

وأخبر أنهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين، فعلى الإنسان أن يسأل الله ﷻ أن يخلصه من شح نفسه، ويذكر عن أحد الصحابة أنه طاف بالبيت وهو يقول: اللهم قني شح نفسي، فقيل له في ذلك؟ قال: أليس الله تعالى يقول: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر:٩]، فإذا وقي الإنسان شح نفسه أفلح؛ لأن النفس جماعة مناعة، {إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} [المعارج:١٩-٢١]، هذه حقيقة الشح.

فأطلق نفسه من أسارها وأطلق يديك من غلها فلا تبخل ولا تمسك حينئذ تكون سعيدا، أما الشحيح فإنه في شفقة مستمرة وفي هلع وخوف دائم.

{وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ} الغدو هو الذهاب في أول النهار، (الحرد)، تدل على معاني، منها القصد، والعزم، والمنع، وجاءت أيضًا بمعنى الغيظ والغضب، فهم متغيظون على الفقراء والمساكين كأنما يرون أنهم يقاسمونهم غلتهم وينازعونهم حقهم.

هكذا وصف الله تعالى حالتهم النفسية أنهم خرجوا مصبحين منطلقين مستوفزين مهتمين مصممين أن يجروه وينفذوه على هذه الصفة، وكانوا في غاية التصميم وفي غاية القصد، والمنع لغيرهم، {قَادِرِينَ} يرون في أنفسهم القدرة على إنفاذ ما عزموا وخططوا عليه.

{فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ} صدموا بهذا المشهد الذي لم يخطر ببالهم، وإذا بتلكم

الجنة الخضراء استحالة سوداء قاتمة محترقة، فأصابتهم صدمة من هول المطلع، وقالوا لعلنا ضللنا الطريق، هذا ليس بستاننا! فلما تيقنوا قالوا: {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} أدركوا بأن هذا حرمان وأن الله ﷻ حال بينهم وبين ما يشتهون ليريهم قدرته عليهم، رغم أنهم قد اتخذوا جميع الوسائل والتدابير، وأقسموا الأيمان المغلظة، ولم يستثنوا أنهم سيصرمونها، ويمنعون المساكين.

فحينئذ انتدب واحد منهم وهو أوسطهم وأمثلهم، {قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ} قد كان يعظهم ويذكرهم بحق الله وحق الفقير، فذكرهم بما كان يقول لهم ولا يلقون له بالًا ولا يكترثون به: {لَوْلَا تُسَبِّحُونَ} أي تنزهون الله ﷻ وتثنون بالخير عليه وتضعون الأمور في مواضعها وتنفذون حق المسكين الذي أمركم به وهذا يقع، تجد بعض الناس يكون فيهم رجل رشيد فيدعوهم إلى الخير فلا يأبهون له ولا يصغون إليه ولا يتذكرون قوله إلا بعد فوات الأوان، كما قال الأول:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

فهذا من شؤم الإعراض عن سماع الناصحين، فإذا وجدت ناصحا فأيده وشجعه وأعنه.

{قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} لعل من الخير الذي أريد بهم أنهم كانوا سريعي الفيئة، فبادروا بالاعتراف بخطيئتهم وبالفعل كانوا ظالمين؛ لأن الظلم هو النقص، فقد ظلموا أنفسهم بأن ارتكبوا هذه المعصية وظلموا الفقير بأن منعوه حقه . قد جعل الله تعالى في الخارج من الأرض حقا، قال تعالى: {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [الأنعام:١٤١]، فإذا أنعم الله ﷻ على امرئ بخارج من الأرض من الزروع أو من الثمار الأشجار فلله تعالى فيه حق وللفقير فيه حق، فيجب أن يؤدي حق الله فيه، {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ

مَّعْلُوم * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُوم} [المعارج:٢٤-٢٥]، فهم في الواقع لم يقدروا الله حق قدره حينما أزمعوا على منع حق الفقير.

واستنبط بعض العلماء أن معنى قوله: {قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُون* قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا} أنهم أرادوا أن ينزهوا الله تعالى عن الظلم، وأن ما أجراه الله ﷻ على بستانهم لم يكن ظلما منه سبحانه بل كان عدلا، لكن يشوش على هذا الاستنباط أنه قد ذكر ذلك بصيغة الماضي، وقال: {أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُون} وما قالوه بعد ذلك قالوه بعد وقوع المحذور، {قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِين}.

{فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ} يلوم بعضهم بعضا، {قَالُوا يَا وَيْلَنَا}، وهذا نداء على النفس بما يسوء.

{إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ} أقروا على أنفسهم بالطغيان وبتجاوز الحد، وأبدوا الأسف والندم، ثم ضرعوا إلى الله ﷻ أن يبدلهم خيراً منها، وأنهم راغبون إليه، تائبون.

هذا مثل الذي حكاه الله ﷻ في كتابه، ووجه الشبه بينه وبين حال المشركين في مكة أن الله تعالى أنعم عليهم ببعثة محمد ﷺ فقابلوا هذه النعماء بالنكران وبالتكذيب، كما أن أصحاب الجنة منَّ الله عليهم بهذه النعمة، بهذا البستان الذي يغل لهم كل عام ما يكفيهم ويكفي سواهم ثم تآمروا وتواطؤوا على منع حق الله تعالى وحق الفقير فقوبلوا بهذه العقوبة. فاعترفوا بظلمهم لأنفسهم وظلمهم لإخوانهم الفقراء، فينبغي للإنسان أن يكون رجاعا إلى الحق، وهذا هو الذي جرى لأبينا آدم عليه السلام فإنه لما عصى ربه تاب فتاب الله عليه، ولو أصر لهلك كما هو حال إبليس، فإن إبليس لما قال له ربه: {مَا مَنَعَكَ أَن

تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ} [ص:٧٥] أبى أن يرجع إلى الحق وقال: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [ص:٧٦].

فشؤم كبريائه وعدم رجوعه إلى الحق أودى به وحق عليه اللعنة إلى يوم الدين، فينبغي دوما أن يعود الإنسان نفسه إلى الرجوع إلى الحق، وإذا استبان له الدليل أن يطأطئ رأسه وأن يخضع له، فإن هذا أدعى لنجاته.

ويقال أن الله ﷻ: أعاضهم عن جنتهم تلك بعد ذلك بخير منها.

فلأجل ذلك قال الله تعالى: {كَذَلِكَ الْعَذَابُ}، فثم وجه شبه بين حال أصحاب الجنة وحال مشركي العرب، فجنوا العاقبة المرة، وهذا من تمثيل الأدنى بالأعلى، أي أن حال هؤلاء لم يبلغهم مبلغ الكفر لكن يجوز تمثيل الأدنى بالأعلى والأعلى بالأدنى لجامع بينهما.

قال الله: {كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}. ومن شواهد ذلك حديث ذات أنواط، أن النبي ﷺ كان مع أصحابه فمروا بشجرة يقال لها ذات أنواط، فقال: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، وقد كان المشركون يعلقون أسلحتهم بشجرة في الجاهلية يبتغون بركتها فقال: « اللهُ أَكْبَرُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} [الأعراف: ١٣٨] إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ»[1]، فمثل الأدنى بالأعلى، فلم يكن الذي صدر من أصحاب النبي ﷺ شركا أكبر، بل كان أصغر، إذ اعتقدوا سببا لم ينصبه الله سببا، فتبركوا بما لم يجعله الله سببا للبركة بينما بنو إسرائيل قالوا اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، فيصح تمثيل الأدنى بالأعلى والعكس لوصف جامع بينهما.

وهذا أيضًا تمثيل من وجه آخر ونقل للذهن إلى صورة أخرى، أي أن هذا العذاب

[1] أخرجه الترمذي- (٢١٨٠)، والنسائي في الكبرى- (١١١٢١)، وأحمد- (٢١٩٠٠)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح

الدنيوي يكون بفوات بعض الأموال والأنفس والثمرات، لكن العذاب الأخروي أشد وأبلغ، فهو العذاب المصيري الذي لا نجاة بعده، فتفطنوا وتيقظوا أيها المشركون واحتاطوا لأنفسكم.

وهكذا أسدل الستار على هذه القصة وهذا المثل المضروب لتنبيه المخاطبين على أهمية شكر النعمة وعدم الاغترار بزخرف الدنيا وتسويغ النفس وتسويل الشيطان.

ولما ذكر الله حال المعذبين ذكر حال المنعمين فقال: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ} المتقون هم الذين يجعلون بينهم وبين عذاب الله وقاية، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والمتقون هم أكرم الناس عند الله ﷻ لقول الله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات:١٣].

والتقوى حالة تقوم بالقلب، توجب لصاحبها حساسية مرهفة من تقحم معاصي الله وتبعث فيه حافزا على طاعة الله، وقد وصفها بعضهم بقوله:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماشٍ فوق أرض ... الشوك، يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

التقوى: أن يتحرز الإنسان من حرمات الله فلا يتجاوزها ولا يقول: هذا لم، وهذه صغيرة، وهذا سهل، ويستكثر من محقرات السيئات، وقد ضرب النبي ﷺ لذلك مثلا لأصحابه «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى حَمَلُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يَأْخُذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ»[1] ، وأن محقرات الذنوب من جنسها، فعلى الإنسان أن

[1] أخرجه الطبراني في الكبير- (٥٨٧٢).

يستنبت في قلبه تقوى الله ﷻ والحذر من الوقوع في هذه المعاصي لأنها إذا أحاطت به خطيئته أهلكته.

والثناء على المتقين في القرآن عظيم كثير، {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة:٢٧]، {إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} [النحل:١٢٨]، {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهَّ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهَّ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس: ٦٢ - ٦٤]، فمن اتقى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب مناهيه فهو الحقيق بهذا الثواب، له جنات النعيم.

وتأمل التعبير بجنات النعيم بعد ذكر جنة هؤلاء، فهذه الجنة جنة دنيوية، زائلة ليست بشيء، بإزاء الجنة الأخروية الدائمة الباقية التي لا تفنى ولا تبيد هي موعود الله للمؤمنين، حتى قال النبي ﷺ في حديث الكسوف لما رأوه تقدم قال: «إِنِّي أُرِيتُ الجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا»[1].

[1] أخرجه البخاري- (٧٤٨)، ومسلم- (٢٤٥٧).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله